

العمليات الانتحارية في ميزان الكتاب والسنة

١٣ يوليو ٢٠١٥٢٦٩٤ مشاهدة

أ.د عبد العزيز بايندر

يُقصد بالعمليات الانتحارية تلك التي يُفجر شخصٌ فيها نفسه بالعدو قاصداً إلحاق الضرر بهم والمساعدة في هزيمتهم. ويطلق البعض على هذا النوع من الانتحار (العمليات الاستشهادية) واصفين من يفعل ذلك بالشهيد الذي يستحق الدرجات العلا عند الله تعالى كما يستحق تكريم المؤمنين لبدله نفسه في سبيلهم.

إن وصف هذا النوع من الانتحار بالاستشهاد لا يمكن قبوله، لأن العدو لا يُقابل بالانتحار، بل بالصبر والثبات. لم يؤمر بالانتحار في القرآن ولا في السنة ولم يعرف عن الصحابة الكرام، بل ورد النهي عنه في القرآن والسنة، لذا لا يمكن أن يكون هذا الفعل من قبيل الشهادة في سبيل الله.

من هو الشهيد؟

يقول الله تعالى {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} (البقرة، ١٥٤) وهنا يوجد شرط لإطلاق (الشهيد) على المقتول، وهو كونه (قد قُتل) في سبيل الله، أى وقع عليه القتل، ويخرج من هذا القيد من قتل نفسه بفعل التفجير. فالمقتول في سبيل الله ليس كمن قتل نفسه بالعملية الانتحارية.

لقد أفتى الشيخ القرضاوى وآخرون أن هذا النوع من الانتحار شهادة. وقد آمن بفتواهم عدد من شباب المسلمين فعمدوا لتفجير أنفسهم بغرض كيد العدو والفوز بدرجة الشهيد. فمن آمن من شباب المسلمين بفتواهم ففضى منتحرا فإثمه على من أفتى، ولا يستطيع أحد أن يجزم بتقبل الله لهم. إن الموت بيد الله وحده لا يملك الإنسان أن ينهيه بنفسه.

والله تعالى لم يصف من يقتل نفسه بالشهيد، بل نهى عن قتل النفس بقوله سبحانه {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء، ٢٩)

وقد روى البخارى ومسلم قول النبى صلى الله عليه وسلم «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» [١]

الدافع للعمليات الانتحارية

الذى يجب أن يُنتبه إليه في هذا السياق أن الذى يفكر بالانتحار هو الذى انقطع أمله من تحقيق النصر وانسد الأفق فى وجهه. ولا ينبغى ذلك للمسلم، ولا يجوز له أن يفقد الأمل بنصر الله.

يقول الله تعالى بلسان يعقوب {وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف، ٨٧)

وفى سورة الحجر يخبرنا القرآن قول إبراهيم عليه السلام {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ} (الحجر، ٥٦)

وفى آية أخرى يقول سبحانه {لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} (فصلت، ٤٩)

الدليل الذى استند إليه القضاوى وتفنيده

لقد استدلت القضاوى على جواز العمليات الانتحارية بقوله تعالى {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَّا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَّا تظَلُمُونَ} (الأنفال، ٦٠)

وقد أطلق القضاوى على هذا النوع من الإعداد/السلاح الجديد (القنابل البشرية). ومعلوم أن هذا الإطلاق لا يتناسب مع كرامة الانسان، فلا يمكن أن يكون الانسان سلاحا. والأهم من ذلك أن الآية التى احتج بها القضاوى لا تتحدث عن القتال فى أرض المعركة أصلا، إنما تتحدث عن ضرورة الإعداد الضرورى لردع العدو عن التفكير فى محاربة المسلمين.

وقد قرأت لبعض العلماء المعاصرين ما يحتجون به على جواز العمليات الانتحارية ومن ذلك ما روى عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفاً يوم أحد فقال: "مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا؟" فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا، أَنَا، قَالَ: "فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟" قَالَ فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ. فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ. قَالَ: فَأَخْذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ [٢]. حيث قالوا: يفهم من الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد من يقاتل به حتى يسقط شهيدا. وقد رأوا بذلك دليلا على جواز العمليات الانتحارية.

ولا أدرى كيف توصلوا إلى مقصد النبى، علما أن قوله "فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟" لا يحتمل ما توصلوا إليه أصلا.

والحق أنه لا يصح الاستدلال بهذه الحادثة على جواز العمليات الانتحارية؛ لأنه قياس مع الفارق الكبير، حيث إن القتال بالسيف لا يؤدي بالضرورة إلى الإستشهاد، فقد ينهزم العدو قبل أن يقضى المجاهد شهيدا. وما أراد النبى هو الحث على الثبات أمام العدو وعدم رجوع القهقري وهو تطبيق عملى لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الأنفال، ٤٥)

وقد حرم الله تعالى فى كتابه الهروب من أمام العدو إلا بغاية الانضمام إلى مجموعة أخرى أو تجميع الصفوف والكر من جديد بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الأنفال، ١٥-١٦)

ثم إن الله تعالى يقول {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة، ١٩٠) والمقاتلة معروفة وهى الالتحام مع العدو، وهذا لا يتم إلا فى أرض المعركة. أما العمليات الانتحارية فهى ليست من باب المقاتلة بل تصنف على أنها قتل للنفس.

ويغلب على العمليات الانتحارية أنها تكون خارج حدود أرض المعركة، وهى فى الغالب تستهدف المعصومين من المدنيين. وهذا تجاوز للحد بلا ريب.

التعامل مع العدو فى حال الضعف

لقد استعبد فرعون بنى إسرائيل، وكان يذبح أبناءهم ليحد من نسلهم، ويستحيى نساءهم لغايات الشر فى نفسه.

وقد وجّه موسى قومه لمقاومة ضغوط فرعون بالصبر والصلاة والدعاء وبيت الأمل فى نفوسهم كما ذكر ذلك سبحانه {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} (الأعراف، ١٢٨)

وكان رد بنى إسرائيل على موسى مخيباً {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} (الأعراف، ١٢٩)

لكن موسى عليه السلام لم يعط الأوامر الخاطئة استجابةً لضغوط قومه، بل ألحَّ عليهم بمزيد من الصبر والأمل {قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} (الأعراف، ١٢٩)

ولما أن الأوان لتحقيق وعد الله تعالى للصابرين من قوم موسى بالنصر، أخذ الله تعالى فرعون وقومه بالسنين ونائبات الدهر {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} (الأعراف، ١٣٠) {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} (الأعراف، ١٣٧)

التعامل مع العدو في حال أمكن تجنب الحرب

خرج النبي صلى الله عليه وسلم بـ ١٦٠٠ من أصحابه قاصداً البيت الحرام في مكة المكرمة في السنة السادسة للهجرة، ولما وصلوا الحديبيةً قريبا من مكة منعهم أهل مكة من دخول البيت الحرام، وكان ذلك عارا على أهل مكة بحسب أعراف العرب التي تقضى أن لا ترد قريشٌ حاجا لبيت الله الحرام.

لقد كان المسلمون بقيادة النبي متفوقين بالقوة المادية والمعنوية، وكان أهل مكة ما يزالون يعانون من هزيمتهم في معركة الخندق قبل عام واحد من الحديبية، وما زاد من معاناتهم أن صاحب اليمامة قد دخل في الإسلام ولم يسمح بإرسال القمح إليهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بمواصلة إرسال القمح إليهم، كما أرسل إلى فقرائهم المال ليقتضوا حوائجهم.

لكن أبا سفيان استحوذ على البضاعة بشرائها لبييعها بأسعار مرتفعة. ولما سمع التجار في مكة خبر قدوم المسلمين انتظروهم بفارغ الصبر لتزدهر أسواقهم، لكن السياسة لها رؤية مختلفة.

لقد كانت الحالة مناسبة جدا لدخول مكة عنوة، وكان المسلمون قادرين على تحقيق نصر سريع؛ فقد خبروا الحرب في بدر وأحد والخندق، وأهل مكة يعرفون بأسهم في الوقت الذي يأسوا فيه من سيطرة أبي سفيان وأمثاله على حياتهم ومصيرهم، لكن الله تعالى لم يعط الإذن للنبي والمؤمنين لدخول مكة عنوة. حيث قال تعالى {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ} (الفتح، ٢٥) وتقدير جواب لولا معروف، وهو لأذنت لكم بالدخول، لكن المانع أن هناك الكثير ممن أسلم من أهل مكة سرا، فلو حارب المسلمون يومئذ فربما يقتل المسلم المسلم دون أن يعلم فيصيبهم الحرج الشديد نتيجة ذلك.

قفل النبي راجعا إلى المدينة بالرغم من حالة عدم الرضا التي انتابت فريقا من الصحابة لأنهم رأوا أنفسهم قادرين على دخول مكة عنوة، لكن الالتزام بأمر الله تعالى بعدم المقاتلة حينئذ تقدم على رغباتهم في القتال. وانتصر القوم على أنفسهم فالتزموا أمر النبي بالرجوع إلى المدينة. وقد سمى الله تعالى ذلك فتحا مبينا بنص القرآن الكريم {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} (الفتح، ١-٣)

لا يستطيع أحد أن يقول أن ما فعله النبيان موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان خاطئاً، ونظراً لتصرفهما السليم فإن كل كافر كان يشعر من صميم قلبه بضرورة الإيمان بهما واتباعهما. لكن العمليات الانتحارية لا تولد في قلوب الكفار سوى الكره والبغض للإسلام والمسلمين.

يقول الله تعالى في سورة الانشراح {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} (الانشراح، ٥-٦)

ما يمكننا فعله كمسلمين هو أن تكون أعمالنا وتصرفاتنا بناء على أوامر الله تعالى، ثم ننتظر النتائج منه سبحانه. وهو لا يضيع من عمل في سبيله، وقد وعد ووعد الحق {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (غافر، ٥١) ثم جعل نصر المؤمنين حقا عليه بقوله {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (الروم، ٤٧).

وقف السلিমانيّة/ مركز بحوث الدين والفترة

الموقع: حبل الله [www.hablullah.com](http://www.hablullah.com)

ترجمه إلى العربية: جمال أحمد نجم

[١] صحيح البخارى، ٥٧٧٨ وصحيح مسلم ١٧٥ - (١٠٩)

[٢] صحيح مسلم ١٢٨ - (٢٤٧٠)